

أقسام النفس في القرآن الكريم



- أهمية معرفة النفس: إنَّ الحديث عن نفس الإنسان حديث له عدَّة جوانب فمن جهة لابدَّ من الحديث عن خصائص هذه النفس، ومن أخرى يمكن الحديث عن قواها التي أودعها الله تعالى فيها، وكذا عن سبل إصلاحها. وسنتحدَّث عن هذه النقاط الثلاث بشيء من التفصيل إذ إنَّ معرفة هذه النقاط الثلاث أمر أساس في علم الأخلاق، ففي الحديث الشريف عن الإمام علي (ع): "من عرف نفسه عرف ربَّه". وفي الحديث عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) في كلام له: "ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه، احتجب بغير حجاب محجوب، واستتر بغير ستر مستور، لا إله إلا هو الكبير المتعال"، إذ يوضح هذا الحديث أنَّ الحجاب الرئيس بين الإنسان والله تعالى هو نفس الإنسان فما دام الإنسان يرى نفسه متصرِّفاً وينسب إلى نفسه كلَّ أمر يقوم به، وما دامت نفس الإنسان هي مدار الرضى التي يبني عليها معتقداته وتصرفاته، فإنَّ هذه النفس ستكون الحجاب الأكبر الذي لا يسهل اختراقه. ولذا كانت النفس وإصلاحها من أهمِّ الأمور في علم الأخلاق، بل إنَّ علم الأخلاق هو تهذيب النفس بالدرجة الأولى للوصول بها إلى الكمال المرجوِّ لها. ولا أدلَّ على ذلك من حديث الرسول الأكرم (ص) حين دخل عليه رجل اسمه مجاشع، فقال: "يا رسول الله! كيف الطريق إلى معرفة الحق؟" فقال (ص): معرفة النفس، فقال: يا رسول الله! فكيف الطريق إلى موافقة الحق؟ قال (ص): مخالفة النفس، فقال: يا رسول الله! فكيف الطريق إلى رضا الحق؟ قال (ص): سخط النفس، فقال: يا رسول الله! فكيف الطريق إلى وصل الحق؟ قال (ص): هجر النفس، فقال: يا رسول الله! فكيف الطريق إلى طاعة الحق؟ قال (ص): عصيان النفس،

فقال: يا رسول الله! فكيف الطريق إلى ذكر الحق؟ قال (ص): نسيان النفس، فقال: يا رسول الله! فكيف الطريق إلى قرب الحق؟ قال (ص): التباعد من النفس، فقال: يا رسول الله! فكيف الطريق إلى أنس الحق؟ قال (ص): الوحشة من النفس، فقال: يا رسول الله! فكيف الطريق إلى ذلك؟ قال (ص): الاستعانة بالحق على النفس". ومن المناسب أن نذكر هنا سؤالاً استنكارياً سألَه أمير المؤمنين (ع) فقال: "كيف يعرف غيره من يجهل نفسه؟". - ما هي النفس؟ تتميز النفس التي أكرم الله تعالى بها الإنسان من غيره من المخلوقات بأنها جمعت العقل مضافاً إلى الغريزة والشهوة، خلافاً للحيوانات التي وضع الله فيها الغريزة والشهوة فقط، أو الملائكة التي أكرمها الله بعقل بدون غريزة وشهوة ومن هنا فإن الإنسان لا يبدؤ له من أن يستخدم العقل في تعديل المتطلبات التي تملئها الشهوة والغريزة حتى يسلك حد الاعتدال الذي أشرنا له فيما سبق، قال الله تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) (الشمس/ 7-8). وعندما نطالع الآيات القرآنية التي تحدثت عن النفس نراها قد تحدثت عن ثلاث حالات من حالات النفس، كما أنزلها وصفتها بصفات مختلفة منها: - النفس الأمّارة: يقول الله تعالى في محكم بيانه (وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ الْأُمَّارَةَ بَالِغُ سُوءٍ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) (يوسف/ 53)، فالنفس الأمّارة بالسوء هي التي تتبع هواها بحيث لا ترى أمامها سوى ما تتمنى الحصول عليه من الشهوات بدون أي التفات إلى الشريعة أو المفسدات الدنيوية والأخروية، ولذا فإن اتّباع النفس الأمّارة بالسوء يجلب الظلم والضلال، يقول الله تعالى: (فَإِنَّ لِمَنْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَأَعْلَمُ أَنْزَمًا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيِرَ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (القصص/ 50). - النفس اللوامة: يقول الله تعالى في محكم آياته: (لَا أُقْسِمُ بِبَيْتٍ أَمَةٍ * وَلَا أُقْسِمُ بِاللَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) (القيامة/ 1-2). والمراد بالنفس اللوامة، نفس الإنسان المؤمن التي تلومه في الدنيا على المعصية، والتثاقل في أداء الطاعات. وقد يُطلق علماء النفس عليها اسم الضمير الذي يؤنب الإنسان على ما فعله من القبائح. - النفس المطمئنة: يقول الله تعالى: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي) (الفجر/ 27-30). والنفس المطمئنة، كما وصفها العلامة الطباطبائي في تفسيره: "هي التي تسكن إلى ربها وترضى بما رضى به فترى نفسها عبداً لا يملك لنفسه شيئاً من خير أو شرٍّ أو نفع أو ضرٍّ ويرى الدنيا دار مجاز وما يستقبله فيها من غنى أو فقر أو أي نفع وضرٍّ ابتلاءً وامتحاناً إلهياً، فلا يدعوه تواتر النعم عليه إلى الطغيان وإكثار

الفساد والعلو والاستكبار، ولا يوقعه الفقر والفقدان في الكفر وترك الشكر، بل هو في مستقرٍّ من العبودية لا ينحرف عن مستقيم صراطه بإفراط أو تفريط... وتوصيفها بالراضية لأنّه اطمئنانها إلى ربّها يستلزم رضاها بما قدّـر وقضى تكويننا أو حكم به تشريعاً فلا تسخطها سائحة ولا تزيغها معصية، وإذا رضي العبد من ربّه رضي الربّ منه، إذ لا يسخطه تعالى إلا خروج العبد من زيّ العبودية، فإذا لزم طريق العبودية استوجب ذلك رضا ربّه ولذا عقب قوله (راضيةً) بقوله: (مَرْضِيَّةٌ) - الحذر من النفس الأمّارة: بعد أن عرفنا النفس الأمّارة بالسوء وميزتها لا بدّ من مواجهتها وعدم الركون إليها، إذ إنّ لبّ علم الأخلاق قهر النفس الأمّارة وكبح جماحها؛ لأنّها كما تقدّم لا ترى إلا ما تريد وتشتهي، ولو خلّفت كل شيء خراباً من خلفها، فإذا كانت النفس الأمّارة خطيرة إلى هذه الدرجة فلا بدّ من أن نجد لها علاجاً لإصلاحها وتليين طبعها الشرس، فما هي الطرق الممكنة لإنجاز هذه المهمّة؟ - إصلاح النفس: إنّ المسالك والطرق إلى إصلاح كثيرة، بل هي بعدد أنفاس الخلائق، إلا أنّها كلّها تبدأ من خلال تهذيب النفس وإصلاحها. فينبغي بالدرجة الأولى لمن يريد إصلاح نفسه أن يرغب نفسه بالأعمال الصالحة، ويكون ذلك من خلال التفكّر في الأعمال وما تستتبع من رضا أو سخط للمولى العزيز، وما يترتّب عليها من آثار في الآخرة، فتطمع النفس بثواب الآخرة، وتخاف من عقاب الأعمال القبيحة. وبما أنّ كثيراً من الناس يميلون إلى الريح السريع ويفضّلون الريح القريب ولو كان قليلاً وتافهاً على الريح البعيد ولو كان كبيراً وعظيماً - وهذه حقيقة في الإنسان قد ذكرها الله تعالى في كتابه حيث يقول جلّ شأنه: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ) (القيامة/ 20-21)، (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) (الإسراء/ 11) - فالإنسان يستعجل ما يتصوّره ربحاً في الدنيا ويترك فوز الآخرة، وهذا ما يسبّب للناس الشقاء، وهنا يتّضح دور العقل في السيطرة على الأهواء النفسية السيئة، فلا بدّ من التنبيه الدائم للنفس على الدوام، لما وعد به الله تعالى أهل طاعته، وحذّر منه أهل معصيته؛ لأنّ مجرد عدم الالتفات إلى الجانب الأخرى من الأعمال والاستغراق في أمور الدنيا وتفصيلها، يُدخل الإنسان في نفق الغفلة المظلم ولا يستيقظ منه إلا بعد الموت في الكثير من الأحيان، ولعلّ هذا هو المراد من قول الإمام علي أمير المؤمنين (ع): "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا". إذاً إصلاح النفس يبدأ من التذكّر والخروج من نوم الغفلة عن الآخرة بالدرجة الأولى، ولهذا الأسلوب في إصلاح النفس ميزتان: الأولى - يصلح ظاهر العمل وباطنه إذ إنّ المراد هو الله تعالى، والمحاسب والمجازي هو الله أيضاً. ب- إنّ جزءاً دائماً لأن ما عند الله خير وأبقى، والقرآن الكريم اعتبر هذا المسلك مسلكاً جيداً وندب إليه، ومنه قوله تعالى: (إِنَّ اللَّاهَةَ أَشَدُّ رَءْفًا مِّنَ

الْمُؤْمِنِينَ أَرْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَّهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَدِيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (التوبة/ 111) وقد ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين: "إنَّه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها". - مرتبة الحبّ □ تعالى: إنَّ علاج النفس تارة يكون بإيجاد المانع فيها من فعل الذنوب كأن يخوف الإنسان نفسه بالنار وغضب الجبار، ففي هذه الحالة يكون الدافع إلى الذنب موجوداً في النفس إلا أنَّه هنالك مانع من الوقوع فيه وهو ما ذكرناه من الخوف وغيره من الموانع، وتارة يكون علاجها بإلغاء الدافع أساساً بحيث لا تطلب النفس الذنب إذ لا رغبة لها فيه، والطريقة الأولى هي من خصائص المسالك الأخرى لا مسلك الحبّ الإلهي، أمَّا الطريقة الثانية - وهي قلع الدوافع من النفس - فهي من مختصات مسلك الحبّ الإلهي، ولهذا المسلك والطريق ركنان أساسان: الأوّل: ركن المعرفة والعلم بأن يصل الإنسان من خلال علمه إلى مرحلة يدرك فيها معنى التوحيد بكلّ أبعاده، ومن خلال هذه المعرفة بالتوحيد لا يبقى أي موضوع لهذه الرذائل، ولن يتوجّه بعد ذلك إلى الناس، ولا يطمع بما في أيديهم؛ لأنَّه يعرف حقّ المعرفة أن الغني منهم لا يملك ولا يُعطي ولا يمنع إلا بإذن □ تعالى، فلا يرجو منه. ولا القوي منهم خارج عن قوّة □، فلا يخاف منه. وغيرها من المعاني. الثاني: ركن العمل إذ مجرد العلم لا يكفي في هذا المجال، فبعد أن يتعلّم الإنسان التوحيد يجب أن يكون توحيده عملياً لا نظرياً فحسب، والطريق إلى التوحيد العملي حبّ □ تعالى، فإنَّ الإنسان إذا أحبّ شيئاً أطاعه وعبده، بل إنَّ من آثار الحبّ الطاعة والتسليم. وخلاصة الأمر أنَّ على الإنسان أن يجعل قلبه متعلقاً با □ تعالى وحده، قال تعالى: (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنٍ فِي جَوْفِهِ) (الأحزاب/ 4)، إذ لا يجتمع حبّ □ تعالى وحبّ الدنيا في قلب واحد، وإذا حصلت المحبّة في قلب الإنسان □ أخذ إيمانه في الإشتداد والإزدياد وانجذبت نفسه إلى التفكير في ناحية ربّه، واستحضر أسمائه الحسنی، وصفاته الجميلة المنزّهة عن النقص والشّين ولا تزال نفسه تزيد انجذاباً، وتترقّى مراتبه حتى صار يعبد □ كأنَّه يراه... فأخذ الحبّ في الإشتداد؛ لأنَّ الإنسان مفطور على حبّ الجميل، وقد قال تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) (البقرة/ 165)، وصار يتّبع الرسول (ص) في جميع حركاته وسكناته؛ لأنَّ حبّ الشیء يوجب حبّ آثاره، والرسول من آثاره وآياته كما أنَّ العالم أيضاً آثاره وآياته تعالى، ولا يزال هذا الحبّ يشتدّ ثمّ يشتدّ حتى ينقطع إليه من كلّ شیء، ولا يحبّ إلا ربّه، ولا يخضع قلبه إلا لوجهه، فإنَّ هذا العبد لا يعثرُ بشیء، ولا يقف على شیء وعنده شیء من

الجمال والحسن إلا وجدَ أنَّ ما عنده أنموذج يحكي ما عندنا من كمال لا ينفد، وجمال لا يتناهى، وحسن لا يُجدُّ، فله الحسن والجمال والكمال والبهاء، فيستولي سلطان الحبِّ على قلبه. - هناك ثلاث حالات للنفس وردت في القرآن الكريم وهي: 1- النفس اللوامة. 2- النفس الأمّارة بالسوء. 3- النفس المطمئنة. - فصّلت الروايات الشريفة ما أجمله القرآن الكريم من أحوال النفس الإنسانية فتحدثت بشكل مفصّل عن حالاتها. - إنَّ المسالك والطرق إلىنا كثيرة بعدد أنفاس الخلائق إلا أنَّها كلّها تبدأ من خلال تهذيب النفس وإصلاحها، ومن هذه الطرق: 1- إصلاح النفس بالغايات الأخرويّة وهذا المسلك هو مسلك أغلب الناس، فبعضهم يغلب على نفسه الخوف وكلّما فكّر فيما أوعدنا الظالمين والذين ارتكبوا المعاصي والذنوب من أنواع العذاب الذي أعدّ لهم زاد في نفسه خوفاً، وبعضهم يغلب على نفسه الرجاء وكلّما فكّر فيما وعدهنا الذين آمنوا وعملوا الصالحات من النعمة والكرامة وحسن العاقبة زاد رجاءً وبالغ في التقوى والتزام الأعمال الصالحات طمعاً في المغفرة والجنّة. 2- إصلاح النفس بالحبِّ الإلهي، وهو مرتكز على أمرين: ركن العلم والمعرفة، وركن العمل.